نظرية التعبير

1-ظروف نشأتها:

سيطرت نظرية التعبير على الحركة الأدبية والنقدية الأوربية حتى أواسط القرن الثامن عشر تقريبا، وقد ظهرت في ظروف شهد فيها المجتمع الأوربي تغيرات جذرية هزت أبنيته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية؛ حيث فازت الثورة البرجوازية على النظام الاقطاعي فولدت قيما ومفاهيم جديدة على كافة الأصعدة والمستويات، تتمثل في هيمنة فئات اجتماعية جديدة على جميع مناحي الحياة، وهي الطبقة البرجوازية التي استطاعت أن تقوم بنهضة صناعية واقتصادية استلزمت بدورها نهضة فكرية وعلمية واجتماعية وثقافية، فقد شهد المجتمع انتقال الناس من الريف إلى المدن، التي أصبحت مكتظة مما ولد علاقات اجتماعية كثيفة ومعقدة ومستقرة، وتطورت الدراسات الاجتماعية والاقتصادية وظهرت فلسفات جديدة وأدب وفن جديدين، ونمت الروح الفردية والروح الديمقراطية. فقد كان شعور الثورة الإخاء والمساواة والحرية. انتشر التعليم فازدادت قاعدة القراء وأصبحت الحياة اليومية أكثر تنظيما، وانعكست هذه التغييرات على الحياة الداخلية للإنسان، على عقله وفكره وأحاسيسه ومشاعره وظهر أدب جديد وموضوعات جديدة وثار الشعراء والأدباء على الزخرفة اللفظية والقواعد والقوانين الكلاسيكية. أدى كل هذا إلى ظهور نظرية التعبير.

2-أسسها الفكرية والفلسفية:

تمحورت التغيرات الجذرية حول الفرد، فعلى الصعيد الاقتصادي رفعت البرجوازية شعارها المعروف "دعه يعمل دعه يمر" وعلى الصعيد الأدبي "دعه يعبر عن ذاته". لقد كانت الفردية في المجتمع الاقطاعي مستمدة من الملكية والجاه والعائلة والحسب والنسب وكان المبدأ الذي تتأسس عليه هو ضبط العواطف والانفعالات والاحتكام إلى العقل لذلك يقال أن المجتمع الاقطاعي يلغي ذاتية الفرد، من هنا كان اهتمام نظرية المحاكاة بفعل الشخصية لا بالشخصية بحد ذاتها وأغفلت الحديث عن مشاعر الأديب وانفعالاته وخياله.

منح المجتمع البرجوازي كامل الحرية للإنسان، فالإنسان يعرف هنا بأنه الإنسان دون انتمائه الاجتماعي، فالفرد عالم قائم بذاته وجوهره الأصيل هما الحرية الحرية والشعور، الوجدان والعاطفة، وكما أن للمجتمع حقوقا فللفرد أيضا حقوق. ظهرت "الفلسفة المثالية الذاتية" التي رفضت الآلية وقالت بالدينامية، التي ترى أن الوجود الأولى للذات أو للوعي الإنساني، أما العالم الموضوعي فمن خلق هذه الذات، وهذا يعني أن الذاتي يخلق الموضوعي وأن العالم الداخلي للذات العارفة هو أساس صورة العالم الخارجي ومادام الأمر كذلك فلابد أن يقدم الشعور والوجدان والعاطفة والتجربة. والفن في هذا السياق تعبير عن الصورة الخاصة للعالم، وهي الصورة التي خلقتها الذات معتمدة الشعور والوعي العاطفي... وكمال التعبير هو قدرة الفن على تصوير خلق الذات لعالمها الخاص.

ويعد كانت (1724-1800) وهيغل (1770-1831) المنظريين الفلسفيين للبرجوازية والفردية، ذهب كانت إلى الفصل بين المعرفة الحسية والمعرفة العقلية واعتبر الشعور طريق المعرفة. ورأى هيغل أن مصدر الفن هو الخبرة الخاصة، وأن العنصر الحسي هو الذي يحرك طاقة الخيال لدى الفنان وبعمل الخيال يدرك الفنان الحقيقة لا كموضوع ولا كفكرة إنما يدركها في صورة.

خطوطها العامة:

تنطلق نظرية التعبير من فكرة أن الأدب تعبير عن الذات، أي تعبير عن العواطف والمشاعر، والقلب هو ضوء الحقيقة لا العقل، ومهمة الأدب تكمن في إثارة العواطف والانفعالات، وبهذا أعيد الاعتبار للشاعر أو الأديب، فقد االهتم أصحاب هذه النظرية بتأكيد الحقيقة القائلة بأن الإنسان خير بطبيعته، كما اهتمو ببيان قيمة الطبيعة إلى حد التقديس، وهذا ما يتضح من خلال علمين من أعلامها هما:

1-وليم ووردزورث (1770-1850)

كتب ووردزورث ديوان غنائيات بالاشتراك مع صديقه كوليردج سنة 1778. ويعد هذا الديوان بداية لمسار جديد للشعر كما تحتوي المقدمة التي وضعها ووردزورث على النصوص

النقدية الهامة في تاريخ النقد الأدبي، وكانت الباعث لكوليردج لكتابة كتابه إلهام "سيرة ذاتية" الذي يعتبر من أهم النصوص النقدية في التراث العالمي.

انطلق ووردزورث من فكرتين: شعر الطبيعة، الشعر البسيط، يقول في مقدمته:" إن كل شعر جيد هو فيض تلقائي لمشاعر قوية" ويضيف بأن الشعور يضفي أهمية على العمل والموقف لا أن العمل والموقف يضفيات أهمية على الشعور، وتكون اللغة الطبيعية العادية التي توجد على ألسنة الطبقات الدنيا وأهل الريف الذين لم تفسدهم الحضارة هي الأنسب للأدب والشعر، فقد رفض ما يسمى بالألفاظ الشعرية وقال بأن الفرق بين لغة الشعر ولغة النثر ليس كبيرا.

تعطي العواطف للموضوع المعالج حسب ووردزورث معناه وقيمته، ويجب أن تكون الموضوعات أيضا مستمدة من الحياة العامة والناس الريفيين والشعبيين لأن لها طابعا سحريا وعلى الشاعر تلوينها بخياله. والشعر عنده معالجة للمشاعر الإنسانية بهدف صحة الإنسان العقلية والجسدية وسعادته، فالشعر يهدف إلى تنشيط روح الإنسان وجعلها أكثر دينامية من خلال تسجيل الحقيقة بشكل مشوق وممتع، والسبب الوحيد الذي يجعل الشاعر قادرا على التعبير عن الحقائق العامة والفعالة هي أنه إنسان سعيد بعواطفه وإرادته الخاصة، إلى درجة يمكن له خلق هذه العواطف إذا لم تكن موجودة فيه أصلا.

يقول ووردزورث في مقدمة ديوانه:" وما الشاعر؟ إنه إنسان كسائر الناس ولكن الله حباه بنعمة الحماس الفاتر والحس المرهف والحنان العذب، إنه يفوق الناس علما بطبيعة الإنسان ويدرك من جوهر الحياة ما لا يدركه غيره، إنه إنسان فرح بما عنده من إرادة، طرب لما له من عواطف، مغتبط بما يحس من روح الحياة. لذلك هو يتأمل هذه العواطف وتلك الإرادة وهي تتجلى في غيره من المخلوقات والكائنات، ولقد اعتاد أن يخلقها حيث لا يجدها، يضاف إلى ملكاته تلك أنه قد كون في نفسه العادة لأن يتأثر بما هو ليس موجودا كما يتأثر بالموجود وأن يجمع في نفسه عواطف بعيدة كل البعد عن هذه التي تحدثها الأحداث العادية...."

2-صموئيل كوليردج (1772-1824)

يعده كثيرون ألمع اسم في تاريخ النقد كله بعد أرسطو، وسادت هذه النظرة إلى غاية القرن التاسع عشر، فقد كان كوليردج شاعرا وفيلسوفا وناقدا كبيرا وصاحب نظرية الخيال، إذا عمق البحث حولها وبين معالمها بوضوح، فرفض فلسفة كانت في الخيال، والتي فحواها أن الخيال مجرد وسيلة لجمع الجزئيات الحسية المتفرقة، وقال أنه عبارة عن "خلق جديد، إنه خلق صورة لم توجد وما كان لها أن توجد بفضل الحواس وحدها أو العقل وحده، إنما هي صورة تأتي ساعة تستحيل الحواس والوجدان والعقل كلا واحدا في الفنان، بل كلا أحدا في الطبيعة. هذا الخيال وحده هو الذي يميز بين الشعراء والعباقرة والشعراء المتشاعرين...الخ"

لم يلغ كوليردج أثر العقل أو أثر الإدراك، فالعقل كما يرى هو القوة الكونية العامة والضرورية للإقناع والإيمان وهو مصدر وأساس تفوق الحقيقة على المشاعر وهو يحمل الحقيقة في ذاتها. أما الإدراك فهو ملكة أو قدرة ترتب وتنظم الحقائق العامة وتعكس الانطباعات والمشاعر. وتتحذ هاتان القوتان في الشعر والفن بواسطة الخيال الذي يصهر ويدمج الخاص والعام، المادي والمثالي، الفكرة والصورة، المضمون والشكل، فالخيال يذيب يصهر يشتت يوحد ويجدد من أجل إعادة الخلق للوصول إلى الوحدة، فالشعر هو النشاط العام للخيال.

يرى كوليردج أن الخيال نوعان: "إنني أعتبر أن الخيال إذن إما أوليا أو ثانويا. فالخيال الأولي هو في رأيي القوة الحيوية أو الأولية التي تجعل الإدراك الإنساني ممكنا، أما الخيال الثانوي فهو في عرفي صدى للخيال الأولي، غير أنه يوجد مع الإرادة الواعية، ويشبه الخيال الأولي في نوع الوظيفة التي يؤديها، ولكنه يختلف عنه في الدرجة وفي طريقة نشاطه. إنه يذيب ويلاشي ويحطم لكي يخلق من جديد، لا يهتم بجزئيات الشيء المدرك أو بالعلاقة بين الذات المدركة والموضوع المدرك. لأن موضوع الخيال الثانوي ينبغي أن يكون غائبا. أي أن الشاعر يعطينا صورة الشيء كما تراءت له أو كما تخيلها في شكل من الأشكال.

نلاحظ إذن أن الخيال الأولي هو طريق الوصول إلى المعرفة، في حين يكون موضوع الخيال الثانوي غائبا لأن الشاعر يعطينا صورة الشيء كما تراءت له، فموضوعاته ثابتة لا

حياة فيها، لأن الخيال الشعري يتخذ مادته من الواقع بعد أن يلغيه أو يعتبره غير موجود، فكأنه يهتم بالعلاقة بين ذات الشاعر كيفية تصوره للأشياء الموجودة في الطبيعة، فأجزاؤه موجودة في الطبيعة لكنها في مجموعها متخيلة ومن صنع خيال الشاعر، مثل قولنا أصابع الفجر تمتد) فهنا يقدم الشاعر رؤية جديدة لكثير من المظاهر التي نراها عادية مألوفة رتيبة تعيش بيننا ونعيش بينها. فالشعر نتاج للخيال والإرادة الواعية التي تنظم الرؤية الجديدة والعاطفة التي يبثها الموقف المتخيل لا الموقف فحسب.

يمثل هذا الشكل المنتج صورة شبيهة بالكائن العضوي الحي الذي يقابل الشكل الآلي الذي قالت به نظرية المحاكاة، لهذا يعتبر كوليردج الخيال الشعري قمة الملكات الإنسانية بل ذروة النشاط الإنساني أيضا. ولم يكن الوحيد الذي عظم هذه الملكة فوليم وليك يرى أن الخيال رؤية مقدسة وهو القوة الوحيدة التي تخلق الشعر، بينما يرى شلنج أن الخيال هو الوسيلة الوحيدة لإدراك أية حقيقة.